ساكنو الثياب ـ ٣ ـ

قال صاحبُ سرِّ (م) باشا : وجاءني يوماً اثنان من شيوخ الدِّين من ذَوِي هيئاتِهم ، وأصحابِ المنزلةِ فيهم ، كلاهما هامَةٌ ، وقَامَة ، وجُبَّةٌ ، وعمامةٌ ، ودَرجةٌ من الإمامة ، ولهما نسيمٌ يَنفحُ عِطْراً حَسِبتُه من تَرويح أجنحة الملائكة ، وعليهما من الوقار كظلِّ الشَّجرةِ الخضراء في لَهَبِ الشَّمس تَفيء به يَمْنةً ، ويَسْرَةً . فتوجَّهتُ إليهما بنظري ، وأقبلتُ عليهما بنفسي ، ووضعتُ حواسِّي كلَّها في خدمتهما ؛ وقلتُ : هؤلاء هم رجالُ القانونِ الذي مادتُه الأولى القلب .

ما أسخفَ الحياةَ لولا أنَّها تدلُّ عل شرفها ، وقدْرِها ببعض الأحياء الَّذين نراهم في عالم التُّراب كأنَّ مادَّتهم من السُّحُب ، فيها لغيرهم الظلُّ ، والماءُ ، والنَّسيم ، وفيها لأنفسهم الطَّهارةُ ، والعلوُّ ، والجمال ، يُثبتون للضُّعفاء : أنَّ غيرَ الممكن ممكنٌ بالفعل ؛ إذ لا يرى الناسُ في تركيب طباعهم إلا الإخلاص ؛ وإن كان حرماناً ، وإلا المروءةَ ؛ وإن كانت مَشَقَّةً ، وإلا محبَّةَ الإنسانيَّة ، وإن كانت ألماً ، وإلا الجدَّ ؛ وإن كان عَناءً ، وإلا القناعةَ ؛ وإن كانت فقراً !

هؤلاء قومٌ يؤلَّفون بيدِ القدرة ، فهم كالكتب ، قد انطوتْ على حقائقها ، وختِمتْ كما وُضِعتْ ، لا تستطيع أن تُخرِجَ للنَّاس من حقيقةٍ نصفَ حقيقةٍ ، ولا شبهَ حقيقةٍ ، ولا تزويراً على حقيقة .

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياةِ الإنسانيَّةِ القائمةِ على النَّواميس الاقتصاديَّة ! فالسَّماءُ نفسُها تحتاج فيها إلى سماسرةٍ لعرض الجنَّةِ على النَّاس بالثَّمن الذي يملكه كلُّ إنسان ، وهو العمل الطَّيِّب .

قال : ونظرتُ إلى الشَّيخين على اعتبار أنَّهما من بقيَّة النُّبوَّة العاملة فيها شريعةُ نفسها ، تلك الشَّريعةُ التي لا تتغيَّر ، ولا تتبدَّلُ ؛ كيلا يتغيَّرَ النَّاسُ ، ولا يتبدَّلوا . ثُمَّ سألتهما عن حاجتهما ، فإذا أحدُهما قد عملَ أبياتاً من الشِّعر جاء يمدح بها الباشا ؛ ليزدلفَ إليه ؛ فقلت في نفسي : « ما أشبهَ حَجَلَ الجبال[1] بألوانِ

---

(١) هذا مثلٌ عربي . والحجل : الطائر المعروف ، يكون في الجبل من لون صخرة ؛ للعلَّة=

صخرها ! » هذا عالِمُ دنيا يحدُّها من الشَّرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدِّينار ، ومن الشَّمال الجاه ، ومن الجنوب الشَّيطان . . . .

ثم نَشَر ورقةً في يده ، وأخذ يَسْرُدُ عَلَيَّ القصيدة ، وهي على رَوِيِّ الهاء ، تنتهي أبياتُها : ها . ها . ها . فكان يقرؤها شعراً ـ أو كما يسمِّيه هو شعراً ـ وكنت أسمعها أنا قهقهةً من الشَّيطان ؛ الذي رَكبَ أكتافَ هذا العالم الدِّينيِّ : ها . ها . ها . ها . . . .

* * *

قال صاحبُ السِّرِّ : وأدخلتهما على الباشا ، فوقف المدَّاح يمدحُ بقصيدته ، وأخذتْ لحيتُه الوافرةُ تهتزُّ في إنشاده ، كأنَّها مَنْفَضَةٌ ينفُضُ بها الملَلَ عن عواطف الباشا . . . وكان للآخر صمتٌ عاملٌ في نفسه كصَمْت الطَّبيعة حين تَنْفَطِرُ البذرةُ في داخلها ؛ إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو ، وإنَّما جاء بصاحبه رافداً ، وظَهيراً يحملُ الشَّمسَ ، والقمرَ ، واللَّيثَ ، والغَيثَ ، لتتقلَّبَ الأشياء حول الممدوحِ ، فيأخذَه السِّحْر ، فيكونَ جوابُ الشَّمس على هذه اللُّغة أن تضيء يومَ الشَّيخ ، وجوابُ القمر أن يملأ ظلامَه ، وجوابُ اللَّيث أن يفترسَ عدوَّه ، وجوابُ الغيث أن يَهْطِلَ على أرضه .

والباشا لا يدعُ ظَرْفَه ، ودُعابتَه ، وكان قد لمح في أشداقِ العالم المتشاعر أسناناً صناعيَّة ، فلما فرغ من نظمه الرَّكيك ؛ قال له : يا أستاذ ! أحسبُني لا أكونُ إلا كاذباً إذا قلت لك : لا فُضَّ فوك . . .

ثُمَّ ذكر الآخرُ حاجتَه : وهي رجاؤه أن يكونَ عمدةُ القرية من ذوي قَرابتهِ لا من ذوي عداوتهِ . فقال له الباشا : ولقريتكم أيضاً أبو جَهْل . . . ؟

* * *

ولمَّا انصرفا قال لي الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القومُ لأنفسهم زيّاً خاصّاً يتميَّزون به في النَّاس ، كأنَّ الدِّين بابٌ من التَّحرُّفِ والتَّصرُّف ، بعضُ آلتِه في ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجُبَبَ ، والقفاطينَ ، وكأنَّها دواوينُهم ، لا ثيابُهم . . .

= المقررة في التاريخ الطبيعي . (ع) .

قد أفهمُ لهذا معنىً صحيحاً إذا كان كلُّ رجلٍ منهم محصوراً في واجباتِ عمله كالجنديِّ في معاني سلاحه ، فيكون التَّعظيمُ ، والتَّوقيرُ لثوب العالم الدِّينيِّ كأداء التَّحية للثَّوب العسكريِّ : معناه أنَّ في هذا الثَّوب عملاً سامياً أولُه بيعُ الرُّوح ، وبذلُ النَّفس ، وتركُ الدُّنيا في سبيل المجتمع ؛ هذا ثوبُ الموت يُفْرَضُ على الحياة أن تعظِّمه ، وتجلَّه ، وثوبُ الدِّفاع تجب له الطَّاعةُ ، والانقياد ، وثوبُ القوة ليس له إلا المهابةُ ، والإعزاز في الوطن .

ولكن ماذا تصنع الجبَّة اليوم ؟ إنَّها تُطْعِمُ صاحبها . . .

أثرُ الجيشِ معروفٌ في دفاع الأمم العدوَّةِ عن البلاد ، فأين أثرُ جيش العلماء في دفاع المعاني العدوَّةِ عن أهل البلاد ، وقد احتلَّت هذه المعاني ، وضَربَتْ ، وتملَّكتْ ، وتركتْ هذا العالم الدِّينيَّ في ثوبه كالجنديِّ المنهزم : يحملُ من هزيمته فضيحةً ، ومن ثوبه فضيحةً أخرى ؟

أنت يا بنيَّ ! قد رأيت (الشَّيخ محمد عبده) وعرفَته ؛ فرحم الله هذا الرَّجل ، ما أعجبَ شأنَه ! لكأنَّه والله ! سحابةٌ مطوية على صاعقةٍ . ولو قلتُ : إنَّه قد كان بين قلبه ورأسِه طريقٌ لبعض الملائكة ؛ لأشْبَهَ أن يكونَ هذا قولاً .

كان يزورني أحياناً فأراني مُرغماً على أن أقدِّمَ له مجلسين أحدُهما قلبي . وكان له وجهٌ يأمرُ أمراً ؛ إذ لا تراه إلا شعرتَ به يرفعك إلى حقيقةٍ سامية[1] .

رجلٌ نَبَت على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم ؛ الذي هيَّأه لرسالته ، فعواطفُه كالعِطْر في شجرة العِطر الشَّذِيَّة ، وشمائله كجمال السَّماء في زُرقة السَّماء الصَّافية ، وعظَمَتُه كرَوْعةِ البحر في منظر البحر الصَّاخب . وكثيراً ما كان يتعجَّبُ من هذا أستاذه (السَّيِّد جمال الدِّين الأفغاني) فيسأله مندهشاً : بالله قل لي : ابنُ أيِّ ملكٍ أنت ؟

لم يكن ابنَ ملكٍ ، ولا ابنَ أمير ، ولكنَّه ابنُ القوَّاتِ الرُّوحيَّةِ العاملةِ في هذا الكون ، فهي أَعدَّته ، وهي ألهمتْه ، وهي أنطقته ، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غيرَ كِتمانٍ ، ومُصَارحةً غيرَ مخادعةٍ ، وهي جعلت فيه أسديَّةَ الأسد ، وهي ألقت

---

(١) وصفنا الشيخ ـ رحمه الله ـ في كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلاً طويلاً تجده هناك . (ع) .

في كلامه تلك الشَّهوةَ الرُّوحيَّةَ ؛ التي تذاق ، وتُحَبُّ ، كالحلاوةِ في الحَلْوى .

هذا هو العالم الدِّيني ؛ لا بدَّ أن يكونَ ابنَ القوَّاتِ الرُّوحية ، لا ابنَ الكتُبِ وحدَها ، ولا بدَّ أن يَخرجَ بعمله إلى الدُّنيا ، لا أنْ يُدخِلَ الدُّنيا تحت سقفِ الجامع .

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بَقَايا تَتضَاءلُ بجانب الأصل ؛ يبحثون في سُنَن النَّبيِّ ﷺ : كيف كان يأكلُ ، ويشربُ ، ويلبس ، ويمشي ، ويتحدَّث ؛ كأنَّهم من الدُّنيا في قانونِ المائدة ، وآداب الولائم ، ورُسومِ المجتمعات ؛ أمَّا تلك الحقيقةُ الكبرى ، وهي : كيف كان النَّبيُّ ﷺ يقاتل ، ويحارب لهداية الخلْق ، وكيف كان يسمو على الدُّنيا ، وشهواتِها ؟ وكيف كان بطباعه القويَّةِ الصَّريحةِ تعديلاً فعَّالاً في هذه الإنسانيَّة للنَّواميس الجائرة ؟ وكيف كان يحملُ الفقرَ ؛ ليكْسِرَ به شِرَّةَ النَّواميس الاقتصاديَّة التي تقضِي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السَّعَةِ ، والضِّيق ، فتُخْرِجُ من الغنيِّ متعفِّفاً ، ومن الفقير لصّاً ؟ وكيف استطاع ﷺ بفقره السَّامي أن يُحوِّلَ معنى الغنى في نفوس أصحابه ، فيجعله ما استغنى عنه الإنسانُ من شهوات الدُّنيا ، وتَرَك ، لا ما نال منها ، وجَمَع ؟ أمَّا هذا ، ونحوُه من حقائق النُّبوة العاملةِ في تنظيم الحياة ؛ فقد أهملوه ؛ إذ هو لا يوجد في الكتُب ، وشروحِها ، وحواشيها ، ولكن في الحياة ، وأثقالِها ، وأكدارِها ؛ وبذلك أصبح شيوخُنا من الأمَّة في مواضعَ لم يضعهم فيها الدِّينُ ، ولكن وضعتهم فيها الوظيفة .

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سُئل بعضُ العرب : بِمَ ساد فلانٌ فيكم ؟ قالوا : احتجْنا إلى علمه ، واستغنى عن دنيانا .

* * *